

المحاضرة التاسعة

التعليم والعلوم فى الحضارة البيزنطية "الجزء الثانى"

اللغات

وعن اللغات التي كانت تدرس في الإمبراطورية البيزنطية فنجد علي رأسها اللغة اليونانية التي كانت تدرس بقدر كبير وعناية خاصة ، وظهر بهذه اللغة اعمال شعرية ونثرية علي رأسها أعمال سنيسوس الفليسوف الذي درس الأفلاطونية الحديثة في شمال أفريقيا ، والشاعرة سابو أف لسبوس وهي شاعرة يونانية من القرن السابع الميلادي ولدت في جزيرة لسبوس حوالي عام ٦٣٠ م ، ولها مجلدات كثيرة من الشعر العاطفي وغيره ، ويلاحظ ان البيزنطيين كانوا يستمتعون بقراءة المؤلفات بأكملها ولا يحبون الاختصار .

أما اللغة اللاتينية فقد ماتت في عهد الامبراطور جستنيان وان تكلم هو اللاتينية ومع بدايات القرن الثامن نجد ان اللغة اليونانية قد اصبحت هي اللغة التي استعملها البيزنطيون، وعادت صحوة أخرى لدراسة اللاتينية بينما حدثت نهضة في روما للدراسات اليونانية وبذلك عادت اللغة اللاتينية واصبحت مالوفة داخل الإمبراطورية وتحتم علي رجال القانون ان يتعلموها أيام الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس . ومن رسائل الامبراطور الكسيوس كومنين ما كتب باللاتينية الي دير مونت كاسينو في ايطاليا وان

كانت غير دقيقة ومع الغزو اللاتيني للإمبراطورية شاعت اللغة اللاتينية داخل أراضي الإمبراطورية .

وفيما يتعلق ببعض اللغات الأخرى مثل العربية والآرامية ولغة الخزر ، فقد كان في الإمبراطورية من يعرفونها كما كان في البلاط بعض منهم لأغراض الترجمة في الاتصالات الدبلوماسية كما أن هذه اللغات وهي لغات الدول المجاورة كانت تستخدم في بعض الأعمال التجارية أو المعاهدات أو في عقود أعمال بحرية ، ورغم هذا كله فقد كان البيزنطي محباً للغة اليونانية .

أما عن تعليم البنات فإن المصادر البيزنطية لم تذكر اسم مدرسة واحدة للبنات ولكن المتخصص في التاريخ البيزنطي يجد أسماء نساء كثيرات بلغن من العلم مبلغاً كبيراً مثل والددة المؤرخ ميخائيل بسلوس التي ساعدت ابنها وهو صغير والمؤرخة أنا كومينا وبنات كثيرات أو سيدات من الأسر الحاكمة ، ويمكن القول أن بنات الطبقة العليا قد تلقين التعليم نفسه الذي تلقاه الرجال علي يد مدرسين خصوصيين داخل المنزل أو القصر ، أما التعليم في الطبقات الوسطى للبنات فيبدو أنه اقتصر على معرفة القراءة والكتابة .

علم التاريخ

ومن العلوم التي درست بمدارس الإمبراطورية وجامعاتها علم التاريخ والحقيقة أن عدد مؤرخي الإمبراطورية البيزنطية قد بلغ من الكثرة التي تفوق أي دولة في أوروبا في العصور الوسطى وقد كان البيزنطيون يحبون أن يقرءوا تاريخ أسلافهم وما سجل

فيه من أعمال مجيدة وتعمق كتاب التاريخ في الماضي البعيد حتي وصلوا الي ايام سيدنا آدم ولعل ذلك مرجعه الي نزعة دينية ، وهذه النزعة التي اتصف بها الشعب البيزنطي ، وكان البيزنطيون ينظرون الي أمجاد الأباطرة السالفين نظرة تمجيد وفخار ، وأشد المواقف تحريكاً لعواطفهم الاحداث المتعلقة بانتصار هؤلاء الأباطرة في معركة هنا او هناك علي المسلمين او البلغار ، ولعل أشد هذه المواقف هو استرداد مدينة القسطنطينية عام ١٢٦١م. كما أن آخر الأباطرة البيزنطيين هو قسطنطين الحادي عشر (١٤٤٨-١٤٥٣م) لم يكن أمامه في اللحظات الاخيرة للإمبراطورية عندما هاجمها الأتراك العثمانيون سوي حث جنوده بكلمات عن جرأة وشجاعة أجدادهم .

الفلسفة

كان علم الفلسفة محبباً لدي الشعب البيزنطي وكان رجال الكنيسة والرهبان يعرفون تماماً الفلاسفة اليونانيين ويمجدون الافلاطونية الحديثة . وفي القرن السابع وهو عصر الفتوحات الاسلامية والقرن الثامن وهو الزمن الذي ظهرت فيه مشكلة الايقونات قبل الإقبال علي العلوم الفلسفية ، ورغم هذا كله كان هناك الاستثناء اذ نجد الراهب قوزماس في عام ٧١٠م يقرأ فلسفة ارسطو وافلاطون كما ذكر يوحنا الدمشقي . وإن بعض الفلاسفة مثل ليون كان يفضل أرسطو بخاصة وان كان قد تعامل مع فلسفة افلاطون وأبيقور وغيرهم من أصحاب الفلسفة الحديثة . وتزعم المؤرخ ميخائيل بسلوس الفلسفة الحديثة في القرن الحادي عشر ، ويرى انه وحده هو الذي اعاد إحيائها وان كان في ذلك شيئاً من المبالغة ولعل نفوذه في بلاط الامبراطور رومانوس الثالث شجعه

علي تعليم الامبراطور ورجال بلاطه ان يتفهموا الافلاطونية الحديثة : وكان من المعاصرين لنموذج بسلوس الأسقف يوحنا موروبس وقد اهتم ايضاً بالافلاطونية الحديثة . والمهم هنا ان الفلسفة اليونانية اصبحت جزءاً من المواد التي تستخدم في تربية المتعلمين واعترفت بها الإمبراطورية ، يضاف الي ذلك ان بيزنطة لم يظهر بها فيلسوف أتى بجديد في هذا العلم ، كما أن الكنيسة لم تعارض تدريس الفلسفة اليونانية في مدارس الإمبراطورية وجامعاتها رغم ان التمسك بالفلسفة اليونانية والعقيدة المسيحية كان أمراً صعباً .

علم اللاهوت

هو العلم المتعلق بكافة جوانب الديانة المسيحية وكان تحت الاشراف الدقيق للكنيسة البيزنطية وكانت كافة الشعائر الدينية تدرس بكل دقة وعناية والوصول فيها الي ادق التفاصيل والحقيقة انه كان بالإمبراطورية بعض العلماء الممتازين الذين تعمقوا في هذا العلم ومن هؤلاء فوتيوس البطريرك والعالم ، ومرقص الإفسوسي الذي لعب دوراً كبيراً في مجمع فلورنسا بإيطاليا عام ١٤٣٨م وإن كان في اواخر عصر الإمبراطورية . وكان المتعلمون حتي العلمانيين منهم لابد لهم ان يلموا بجانب من شئون الدين ، وكان يتحتم علي الأباطرة باعتبارهم الرؤساء الأعلى للكنيسة ان يدرسوا الي حد كبير علم اللاهوت وان كان بعضهم غير ذلك. وتذكر لنا المصادر ان المؤرخة أنا كومينا كانت من أشد المعجبين بالكتاب الديني للقديس ماكسيموس الماعترف (٥٨٠-٦١٢م) .

الرياضيات

عاش البيزنطيون علي أمجاد علماء اليونان الاقدمين ولم يضيفوا اليها شيئاً وكان الحساب مشكلة المشاكل لديهم لأنهم استخدموا الحروف الأبجدية في الاعمال الحسابية حتي تعلموا الارقام عن طريق العرب ، وكانت هندسة إقليدس المرجع الاول والاخير لديهم طوال عصر الإمبراطورية ، شأنهم في ذلك شأن العالم كله في العصور الوسطي .

علم الجغرافيا

عاش البيزنطيون في علم الفلك علي ما سجله العالم اليوناني بطليموس وقد حاول قوزماس الملاح وهو يوناني الاصل عاش بمصر في مدينة الاسكندرية في القرن السادس الميلادي ، أن يقدم نظرية حول شكل الارض وذكر انها مسطحة ومستطيلة وانها مثل صندوق او غرفة من طابقين الطابق الارضي هو الارض ويحجبها في الليل جبل مخروطي الشكل مرتفع مع الطرف الغربي للحجرة وحول هذه الأرض المحيط من ورائه الأرض التي يعيش عليها الناس في مأمن من الطوفان ، اما المؤرخة آنا كومينا فقد كانت تعتقد في نظرية الأفلاك الدوارة وجعلت من الكرة الارضية مركزاً لمجموعة الكرات الارضية ويجمع الجميع مركز واحد . والحقيقة ان هذه الفكرة قديمة ظهرت في بلاد اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد . وكان لدي البيزنطيين معلومات طيبة عن مواقع ما سجل في مؤلفات البيزنطيين .

أما عن رسم الخرائط فلايوجد لدينا سوي خريطة مرسومة بالفسيفساء ترجع الي القرن السادس الميلادي وهي تمثل خريطة فلسطين . ومما هو مسجل في كتاب "الإدارة الإمبراطورية" نجد الامبراطور قسطنطين السابع الذي ينسب إليه هذا الكتاب يقدم

معلومات طبية عن كافة الشعوب التي تحيط بالإمبراطورية من جميع الجوانب بداية من الجزيرة العربية ومصر وشمال افريقيا والأندلس متجهاً إلي أوروبا من الغرب إلي الشرق وان كانت الاخطاء قليلة للغاية ولكنه لم يقدم خريطة عن هذه الأقاليم .

وقدمت المؤرخة آنا كومنينا بعض المعلومات عن الرياح ، وذكرت ان والدها أمر بوضع خريطة عن البحر الإدياتيكي والمدن الواقعة عليه ، ولعل ذلك يرجع الي الخطر النورماني الذي يهدده من هذا الجانب ، وحاول البعض ان يقدم تفسيراً لحدوث البرق والرعد في وقت واحد ، والحقيقة أن المعارك التي وقعت بين الإمبراطورية وأعدائها تشير إلي تفهم الإمبراطورية لجغرافية الأرض المحيطة بها ، كما ان إستخدام الأسطول البحري لابد وان يتحرك طبقاً لقواعد علمية جغرافية .

العلوم الطبية

اهتم البيزنطيون كثيراً بالعلوم الطبية ورغم ذلك لم تتقدم النظرية الطبية عندهم كثيراً عن العلوم اليونانية منذ عصر أبوقراط وهذه النظرية تعتمد علي توافق الأمزجة الأربعة للجسم وهي الدم والبلغم والصفراء والسوداء ، والدرجات الاربع هي الحر والجفاف والبرد والرطوبة ، والعملية الصحية للإنسان تعتمد علي التناسب الصحيح بين هؤلاء . وكان هناك الطب الشعبي المرتبط بالأغذية وهي الفكرة التي تطالب الناس بما يأكلوه في كل موسم من مواسم العام ، بمعنى ان لكل موسم أمراضه وفي الطعام والفاكهة والخضروات ما يكفي لوقاية الانسان المتوافق شر هذه الامراض ، وآمن البيزنطيون بالحجامة والكي رغم انهما لم يوصلا إلي نتائج جيدة كما استخدم

البيزنطيون العقاقير واثبت الواقع انها تعود ببعض المنافع ، كما أوصي البعض بأداء بعض التمارين الرياضية المنتظمة لوقاية الجسم من الأمراض .

المستشفيات

وواقع الحال ان العملية الطبية كانت تصل الي صورة طبية داخل المستشفيات فقد كان هناك مستشفيات للجيش ، كما كان يوجد بالإمبراطورية مؤسسات خيرية كبرى تملك المستشفيات حيث الغابر عالية الكفاءة للعناية بالمرضي ومن هذه المستشفيات "مستشفى دير الإله القاهر" وهو الدير الذي اسسته إيرين زوجة الامبراطور يوحنا كومنين وأشار إليه المؤرخ يوحنا كيناموس لذلك أعدق الامبراطور نفسه الهبات عليه ، ويذكر أنه في عهد الإمبراطور وبالتحديد في عام ١١١٢ م . كان يوجد بهذه المستشفى عشرة أطباء من الرجال ومعهم طبية بالاضافة إلي اثنا عشر مساعداً من رجال التمريض واربع مساعدات من النساء واثان من اطباء الباثولوجي وهو علم يهتم بأسباب الامراض واعراضها .

وكان بالإمبراطورية مستشفيات اصغر في اماكن كثيرة داخل البلاد . ويلاحظ ان المستشفيات كانت تلحق بأديرة الرجال أو النساء أو بيوت الضيافة للفقراء ، وكان علي بعض الرهبان أو الراهبات أو الأصحاء من بيوت الفقراء تقديم الخدمة لهؤلاء المرضى وتدلنا المصادر علي أن كثيراً من الأباطرة والنبلاء كانوا يتبرعون بالأموال لمثل هذه المستشفيات التي لا نستطيع ان نقدر عددها داخل الإمبراطورية .

ومما لا شك فيه انه كان يوجد الكثير من المرضى في القرى النائية لا يعلم عنها شيئاً ولم تمتد إليهم الأيدي لمعالجتهم وفيما يتعلق بالطبيبات فالأرجح ان عملهم كان داخل المستشفيات فقط خاصة أديرة النساء ، ويستدل من المصادر أن مرض النقرس كان شائعاً في الإمبراطورية وقد تم التعرف علي أسبابه ولذلك وضعت محاولات طبية لازالة الأحماض من الجسم ووجد الاطباء ان التدليك والراحة والدفئ يخفف من آلام هذا المرض .

والحقيقة ان مزاولة مهنة الطب لم تكن قاصرة علي الاطباء فقط ، فقط كان هناك بعض غير المؤهلين يزاولونها وقد تركت لنا بعض المصادر اسماء مشاهير زاولوا هذه المهنة ومن هؤلاء المؤرخ بسلوس والمؤرخة أنا كومينا فقد ورد عنهما أنهما ذكرا ان معلوماتها لا تقل عن معلومات الاطباء . اما الامبراطور مانويل الثاني كومنين فلم يتكلم عن نفسه ولم تذكر المصادر البيزنطية انه اهتم بالعلوم الطبية ولكن معلوماتنا عن ذلك جاءت من خطاب أرسله الامبراطور كونراد الثالث ملك ألمانيا الي رئيس دير كورفي في عام ١١٤٨م خلال أحداث الحملة الصليبية الثانية يذكر فيه أنه وقع فريسة للمرض ، وإن الإمبراطور نقله علي وجه السرعة إلي القسطنطينية ليعالجه بنفسه كما ذكر المؤرخ الصليبي وليم الصوري ان الامبراطور مانويل قدم الرعاية الطبية وانه وضع الضمادات والأربطة بنفسه علي ذراع الملك الصليبي بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس (١١٤٤-١١٦٢م) عندما سقط الملك من علي فرسه وكسرت ذراعه في إحدى رحلات الصيد قرب مدينة إنطاكية .

وتوجد علوم أخرى اشتغل بها البيزنطيون وعلي رأس هذه العلوم تأتي الكيمياء وأهم ما قدموه في هذا العلم هو النار الاغريقية باستعمال مادة قابلة للاشتعال يقذف بها علي الأعداء وقد أدركوا أهمية هذه العملية وجعلوها سرّاً من أسرارهم . أما علم الميكانيكا فقد تقدم فيه البيزنطيون كثيراً ومن ذلك الساعات واللعب وتمثيل الأسود التي تزار، وهي أمور جعلت كل زوار القصر الامبراطور من الدبلوماسيين خاصة يتعجبون لمثل هذه الاعمال وإن الإنسان يندم كثيراً عندما يعلم ان كل هذه الإبداعات قد نهبها الصليبيون مع الحملة الصليبية الرابعة .

أما فيما يتعلق بالعلماء فإنهم عادوا بذاكرتهم الي الخلف حيث علوم الاقدمين فضلا عن جميع الدراسات الدينية وظهر في هذه المرحلة بعض العلماء الذين اهتموا باللغة والأدب كما تأثر البعض منهم بفلسفة توماس الأكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م) وهو الايطالي صاحب الفلسفة التي تنسب الي اسمه وهي التومانية او الكلامية وكانت شائعة في اوربا العصور الوسطي كما ان مدينة سالونيك كانت تدار بها حلقات للدراسة تناقش افضل المؤلفات الادبية ، اما إمارة طرابيزون (١٢٦١-١٤٦١م) فقد ظهرت بها بعض الابحاث الفلكية كما لمع أسماء بعض الفلكيين الذين درسوا في بلاد فارس مثل جريجوري خونيادس وتلميذه جورج خريسوكوكيس الذي اهتم بالطب والجغرافيا ، ويلاحظ ان إمارة طرابيزون اصبحت في هذه المرحلة تفتخر بجامعتها ، كما انها أصبحت مركزاً للباحثين وجمعت الترجمات الخاصة بالعلوم الفلكية والرياضية من أعمال الفرس والعرب وان ما قام به جريجوري خونيادس قد اتمه الراهب مانويل الطرابيزوني . وظلت

طرابيزون منارة للعلم في البحر الاسود واصبحت حلقة وصل بين العلوم العربية
والفارسية الي العالم وظلت هكذا حتي اخضعها الاسطول العثماني عام ١٤٦١م في
عهد السلطان محمد الفاتح .